فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والتسعين بعد الأربعمائة

استهلت هذه السنة: المستظهر بأمر الله، وملوك البلاد والأطراف على حالهم.

ذكر ابتداء ظهور الفرنج إلى بلاد الاسلام:

والكلام فيه أنواع:

الأول: في ابتداء خروجهم:

كان خروجهم أولا بالمغرب، فخرجوا إلى بلاد الاسلام واستولوا عليها وفتحوا من المدن طليطلة وغيرها في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وملكوا جزيرة صقلية في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وتطرقوا إلى أطراف افريقية فملكوها.

الثاني في مسيرهم إلى بلاد الشام:

لما كان هذه السنة ـ اعني سنة احدى وتسعين وأربعمائة ـ خرجوا إلى بلاد الشام، وكان سبب خروجهم أن ملكهم بردويل جمع جمعاً كثيراً من الافرنج لقصد الشام، ساروا إلى القسطنطينية ليعبروا الخليج فيكون أسهل عليهم من البحر، فلم يمكنهم صاحبها من العبور حتى شرط عليهم أنهم ان ملكوا انطاكية يعيدونها عليهم، وظن صاحب القسطنطينية أن الأتراك سيظهرون عليهم لشدة بأسهم، لأنهم ملكوا البلاد، فأجابوه إلى ذلك، فمكنهم من العبور، فوصلوا إلى بلاد قليج

أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق، وهي قونية وغيرها، فقاتلوهم وهزموهم وعبروا إلى بلاد ابن ليفون الأرمني فسلكوها وخرجوا إلى انطاكية.

فلما سمع صاحبها ياغي سيان التركماني حصن البلد، وأخرج النصارى منها، فجاء الفرنج بالعدة والعديد حتى نزلوا عليها وحصروها أشد الحصار، وقاتلوها تسعة أشهر، وقتل من الفريقين جمع كثير، فلما طال مقام الأفرنج عليها، وكان بها شخص مستحفظ بعض الأبراج زراد يعرف بروزبة، فبذلوا له مالاً واقطاعاً، وكان البرج يلي الوادي، وهو مبني على شباك حديد يخرج منه في الشتاء ماء المطر، وأنه مكنهم من قلع ذلك الشباك ودخولهم، فصعد جماعة كثيرة في الليل، فلما أصبحوا أشهروا السلاح وهجموا على المسلمين فقتلوا وقتلوا، واما ياغي سيان فإنه قاتل ثم فتح الباب وهرب ومعه جماعة وتركها لهم، وسار منها كالوهان فنزل على أربعة فراسخ منها، وندم حيث لم يقتل عند أهله وعياله، فوقع مغشياً، فمات في تلك الساعة، وتركه أصحابه بمكانه وتوجهوا.

وفي تاريخ بيبرس: فمن شده مالحق ياغي سيان سقط مغشيا عليه فأراد من معه أن يركبه فلم يكن فيه من المسكة مايثبت على الفرس، فتركوه مرميا، واجتاز انسان أرمني كان يقطع الخشب بياغي سيان محمد ابن ألب أرسلان التركماني فعرفه وهو على آخر رمق، فقطع رأسه وحمله إلى الافرنج بانطاكية.

وكان دخول الافرنج أنطاكية في جمادى الأولى من هذه السنة، ووضعوا السيوف في المسلمين الذين بها ونهبوا أموالهم.

الثالث في مكاتبة الأفرنج إلى المسلمين وتوجه المسلمين إليهم على أنطاكية:

ثم ان الافرنج كاتبوا صاحب حلب ودمشق يقولون: اننا لانقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، مكراً منهم وخديعة، فلما بلغ ذلك كربوغاً صاحب الموصل جمع العساكر وسار إلى مرج دابق، وهو مرج واسع بالقرب من حلب من ناحية الشمال، واجتمعت إليه عساكر الشام وهم: رضوان بن تتش صاحب حلب، وطغتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص، وهو زوج أم الملك رضوان، فإنه كان قد فارق رضوان من حلب، وسار إلى حمص فملكها، وأرسلان صاحب سنجار، وسليمان ابن أرتق صاحب سروج وغيرها، وغيرهم من الأمراء والتركمان، وساروا إلى أنطاكية فحاصروها بالجميع حتى انحصر الأفرنج بها، وعظم خوفهم حتى طلبوا من كربوغا ان يطلقهم فامتنع، ثم ان كربوغا اساء السيرة مع الامراء وتكبر عليهم، فخبثت نياتهم عليه، وكان في أنطاكية بردويل وصنجيل، وكندهري، والقمص صاحب الرها، وبيمند صاحب أنطاكية.

ولما ضاق عليهم الامر وقلت الاقوات اجتمعوا وخرجوا من انطاكية واقتتلوا مع المسلمين، وكان الامراء الذين مع كربوغا قالوا له: الصواب ان نحمل عليهم ونقاتلهم اولاً بأول، فقال لهم: بل نتركهم إلى ان يخرجوا جميعا ونحمل عليهم، فلما تكا مل خروج الافرنج ضربوا مصافاً فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوغا اولا من الاهانة والاعراض عنهم، وثانيا بانه لم يسمع من رأيهم، وتمت الهزيمة عليهم لاضربا بالسيف ولاطعنا بالرمح، وقتل الفرنج من المسلمين الوفاً وغنموا ما في المعسكر من الأموال والاقوات والدواب والمسلحة، فصلحت بها حالهم، وعادت إليهم قوتهم.

وفي تاريخ المؤيد [صاحب حماة] فقتلوا من المسلمين مايزيد على مائة الف انسان، وسبوا السبي الكثير.

وفي تاريخ العظيمي: لما اجتمع كربوغا مع الامراء المذكورين وجمعوا عساكر عظيمة مقدار اربعمائة ألف انسان، ساروا فوجدوا ان انطاكية قد فتحت سلمها اليهم فيروز الارمني، وكان من جملة المتحفظين على الأبراج، وسمع بانكسار المسلمين يوم الثلاثاء السادس عشر من رجب من هذه السنة، وكان قد ملك انطاكية من الافرنج بيمند، وكان قد صنع مناماً، ودفن سنانا في بعض الكنائس، وقال للافرنج: رأيت المسيح في هذه الليلة يقول لي: اخرج فانك تكسر المسلمين، فقلت: مايصدقني الافرنج، فقال: خذ السنان في الموضع الفلاني وركبه في قنطاريتك ولاقهم بها تكسرهم، فبادر الافرنج إلى ذلك الموضع واستخرجوا السنان منه وخرجوا إلى المسلمين وكسروهم.

الرابع في توجه الفرنج الى معرة النعمان وحمص:

ثم لما فرغوا من امر المسلمين في ارض انطاكية توجهوا إلى المعرة فنازلوها وحاصروها، واخذوا عليهم النقوب ووضعوا السلاليم والأبراج الخشب، فصعدوا عليها فملكوها ووضعوا في المسلمين السيف ثلاثة أيام، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسبوا وفتكوا، وأقاموا أربعين يوماً، ثم رحلوا إلى حمص فصالحهم جناح الدولة حسين على مال، ثم ساروا إلى عرقة فحصروها أربعة أشهر، فصالحهم صاحب شيزر ابن منقذ على مال ثم على طريق النواقير إلى عكا، فلم يقدروا عليها.

وفي تاريخ ابن كثير: قتل الافرنج في معرة النعمان وبلادها مايزيد على مائة الف انسان وسبوا سبيا كثيراً، ولما بلغ هذه الحال السلطان بركياروق، شق ذلك عليه وكتب إلى الامراء ببغداد ان يتجهزوا صحبة الامير ابن جهير لقتال الافرنج، فبرز بعض الجيش إلى ظاهر البلد

بالجانب الغربي، ثم انفسخت هذه العزيمة لانه بلغهم ان الافرنج في الف الف مقاتل، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم.

الخامس في توجه الفرنج إلى القدس:

ذكر بيبرس في تاريخه ان في هذه السنة حاصر الافرنج البيت المقدس وكانوا قد ملكوا الرملة قبل.

وذكر المؤيد وابن كثير في تاريخيهما حصر الافرنج القدس في السنة الثانية والتسعين بعد الأربعمائة، وأنهم ملكوه يوم الجمعة ضحى، لسبع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين، وهم كانوا في ألف ألف.

وقال بيبرس في تاريخه: وفي سنة احدى وأربعمائة حاصر الافرنج البيت المقدس، وكانوا أخذوا الرملة، فلما علم الوزير الأفضل خرج بعساكره من مصر، فلما علم الفرنج بخروجه جدوا في الحصار، فملكوها قبل وصوله، وهدموا المساجد وقبر ابراهيم الخليل عليه السلام، وأحرقوا المصاحف وأخذوا من الصخرة من الآلات والقناديل الذهب والفضة وغيرها مالايحصى، فوصل الأفضل إلى عسقلان وسير رسله إليهم يؤنبهم بما فعلوه، فساروا إلى عسقلان وهجموا على عسكر الأفضل فهزموهم، فدخل الأفضل وبعض العساكر عسقلان، ووقع القتل في المسلمين والنهب في أثقالهم، وانهزم الأفضل إلى مصر في البحر وذلك في شعبان من سنة احدى وتسعين وأربعمائة.

وقال العظيمي في تاريخه: فتح الافرنج معرة النعمان في المحرم من سنة اثنتين وتسعين واربعمائة، ثم تحولوا إلى كفر طاب، ثم إلى حماة فلم يقدروا عليها، ثم تحولوا إلى القدس ففتحوها من أيدي المصريين، وملك القدس الملك الذي اسمه الكندفري ــ عليه اللعنة ــ وأحرقوا كنيسة

اليهود، ونـزلت عسـاكر مصر مـع الأفضل وزيـر مصر فكسرهم الافـرنج على عسقلان.

وفي تاريخ المؤيـد: وكان تاج الدولـة تُتُش قد اقطع بيـت المقدس ؛ للأميرأرتق،فلماتـوفي صارت القـدس لولديـه ايلغازي وسقمان ابنـي ارتق حتى خـرج عسكر خليفة مصر فاستـولى على القدس بالامـان في شعبان سنـة تسع وثمانين واربعمائة، وسـار سقمان واخوه ايلغـازي من القـدس، فأقـام سقمان ببلد الـرها، وسار إيلغـازي إلى الفرات، وبقيـت القدس في ايدي المصريين إلى الآن فقصـدها الأفـرنج وحصروهـا نيفاً واربعين يـوما وملكـوهـا يـوم الجمعـة لسبع بقين مـن شعبـان مـن سنـة ثنتين وتسعين وأربعمائة، ولبث الفرنج يقتلون في المسلمين بالقدس اسبوعاً.

السادس فيما فعله الافرنج في القدس الشريف:

قال ابن الجوزي: وقـد اخذوا من حول الصخـرة اثنين واربعين قنديلاً من فضـة، كل قنـديل منها ثـلاثة آلاف وستمائة درهـم، وتنورا مـن فضة زنته أربعـون رطل بالشامـي، وثلاثة وعشريـن قنديلا من ذهـب، وذهب الناس على وجوههـم هاربين من الشام إلى العراق مستغيثين مـن الافرنج الى الخليفـة والسلطان، ومنهـم القاضي بـدمشـق أبو سعيـد الهروي، فلما سمع النـاس ببغداد بذلـك الأمر الفظيع هالهم ذلـك وتباكوا، وقـد نظم أبو سعيد الهروي كلامـاً قرىء على المنابر فجهر الناس بـالبكاء، وقد ترك الخليفة الفقهاء إلى الخروج ليحرضوا الملـوك على الجهاد، فخرج ابن عقيل وغير واحد من أعيان الفقهاء فساروا في الناس، فلـم يفد ذلك شيئاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي تـاريـخ بيبرس: وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة ورد المنهـزمـون من الشام في شهر رمضان إلى بغداد وصحبتهم القاضي أبو سعيد الهروي لائذيـن بحرم الخلافـة من الأفـرنج شـاكين مـافعلوه بـالقدس الشريـف

وماحوله، فأورد في ديوان الخلافة كلاما أبكى العيون واوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكروا مادهم المسلمين بذلك البلد الشريف العظيم من قتل الرجال وسبي الحريم والاولاد، ونهب الاموال، ولشدة ما أصابهم افطروا، فأمر الخليفة ان يسير القاضي أبو محمد الدامغاني، وابو بكر الشاشي، وابو القاسم الزنجاني، وابو الوفاء ابن عقيل، فاعتذر القاضي بكبر سنه، والزنجاني بمرضه، وتمنع الشاشي، وسار أبو الوفاء ابن عقيل، وأبو سعيد الحلواني، وأبو الحسين ابن السماك، فساروا إلى حلوان، فبلغهم قتل مجد الملك البلانياسي، فعادوا من عير بلوغ أرب، وأخلف السلاطين، فتمكن الفرنج من البلاد، فقال المظفر الابيوردي في هذا المعنى أبياتاً:

مزجنا دما بالدموع السواجم
فلم نبق الا عرضة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه
اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فايها بني الاسلام ان وراءكم
وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
وكم نومة في ظل امن وغبطة
وعيش كنوار الجميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها
على هفوات ايقظت كل نائم
واخوانكم بالشام يضحي مقيلهم
ظهور المذاكي او بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وانتم
تجرون ذيل الخفض فعل القوادم
وبين اختلاف الطعن والضرب وقفة
يظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها
ويسلم يقرع بعدها سن نادم

سللـــن بـــأيـــدي المشركين قـــواضبـــا
ستغمـــــدمنهـــــم في الكلى والجماجـــــم
يكـــــادهن المستجـــــن بطيبـــــة
ينـــادي بـــأعلى الصـــوت يـــال هـــاشـــم
ارى امتـــــي لايشرعـــــون الى العـــــدا
رمـــاحهـــم والـــديـــن واهـــي الـــدعـــائم
ويجتنبـــون النـــار خـــوفـــا مـــن الـــردى
ولايحسبـــــون العـــــار ضربـــــة لازم
أيـــرضـــى صنـــاديـــد الاعـــارب بـــالاذى
وتغضي على ذل كماة الاعـــــاجـــــم
فليتهـــــم اذلم يـــــذودواحميـــــة
عـــن الـــديـــن ضنـــواغيرة بـــالمحـــارم
وان زهـــدوافي الاجـــر اذحمي الـــوغـــى
فهـــلا اتـــوه رغبـــة في المكـــارم
لئـــن اذعنـــت تلـــك الخيـــاشيـــم للبُرى
فـــلا عطســـوا الا بـــأجـــدع راغـــم
دعـــونـــاكـــم والحرب تـــرنـــو ملحـــة
الينـــا بـــالحاظ النســـور القشـــاعـــم
تـــراقـــب فينـــا غـــارة عـــربيـــة
تطيـــل عليهـــا الـــروم عـــض الابـــاهـــم
فـــان انتـــم لم تغضبـــوا بعـــد هـــذه

رمينـــا الى اعـــدائنـــا بـــالجرائم[1]

وجرى ذلك كله باشتغال السلطان بركياروق والاتراك بعضهم ببعض مع السلطان محمد على ماسنذكره في السنة الآتية ان شاء الله تعالى....

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والتسعين بعد الاربعمائة

ذكر ماجرى على بيمند الفرنجي من ابن الدانشمند:

وابن الدانشمند هذا اسمه كمشتكين، وانما سمي ابوه بالدانشمند لانه كان معلما للتركمان، والمعلم عندهم اسمه الدانشمند، وكان اسمه فتقلبت الأحوال بابن الدانشمند حتى ملك ملطية وسيواس وغيرهما، وقصده الفرنج مع مقدمهم بيمند في خمسة آلاف فلقيهم ابن الدانشمند بالقرب من ملطية، وقاتل معه قتالاً شديداً، فهزمه وظفر المسلمون بالفرنج، وأسر بيمند، فاجتمع الفرنج وارادوا الخليصة ولم يقدروا.

وفي تاريخ ابن كثير: وفي هذه السنة اقبل ملك الافرنج في ثلاثمائة الف مقاتل، فالتقى كمشتكين المعروف بالدانشمند.

قال ابن كثير: واظنه اتابك الجيوش بدمشق الذي يقال له امين الدولة، واقف الامينية التي بدمشق وبصرى، لا التي ببعلبك، فهزم الافرنج وقتل منهم خلقاً بحيث لم ينج منهم إلا ثلاثة آلاف واكثرهم جرحى، وذلك في ذي القعدة، ولحقهم إلى ملطية فملكها واسر ملكها.

قلت: الظاهر بل الصحيح ان هذه القضية مع الفرنج غير القضية التي ذكرناها، وان كمشتكين الذي ذكره ابن كثير ان هو ذاك الذي ذكرناه آنفا، فليس يقال له ابن الدانشمند، فافهم.

وفي تاريخ بيبرس: ثم ان الأفرنج بعد انكسارهم من ابن الدانشمند ساروا الى قلعة تسمى انكوريا[٢] فاخذوها، وقتلوا من بها من المسلمين، وساروا الى قلعة اخرى فيها اسماعيل بن الدانشمند وحصروها، فجمع جمعا كثيرا وقاتلهم وجعلهم كميناً فخرج عليهم الكمين فقتلهم وهزمهم

وكانوا ثلاثة آلاف فلم يفلت منهم سوى ثلاثمائة مجرحين.

ذكر بقية الحوادث

منها: ان جماعة من اهل الشام اتوا مصر هربا من الافرنج والغلاء والوباء، ومات بمصر في هذه السنة خلق كثير.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والتسعين بعد الاربعمائة

ذكر ماجرى من الفرنج:

وفي صفر منها أغار الفرنج من الرها على سرح الرقة وقلعة جعبر، فاستاقوا المواشي، وأسروا من وقع في أيديهم من المسلمين، وكانت جعبر والرقة لسالم بن مالك سلمها إليه السلطان ملكشاه.

وفي المرآة خرجت الأفرنج من الرها وانقسموا قسمين: قسم قصدوا حران، والآخر الرقة، ونزل سقمان بن أرتق من ماردين، وكان سالم بن بدران العقيلي في بني عقيل نازلا على عين العروس فالتقوه واقتتلوا قتالا شديدا، واسر سالم بن بدران، وكانت الدائرة على الأفرنج، فانهزموا وقتل منهم خلق كثير.

وفي تاريخ بيبرس: وفيها غزا سقمان وجكرمش الأفرنج، فلما استطال الأفرنج بما ملكوا من البلاد التي هي للمسلمين باشتغال عساكر الاسلام وملوكهم بقتال بعضهم بعضاً، وكانت حران لقراجا، أحد مماليك ملكشاه، فاستخلف عليها محمد الأصفهاني، فعصى عليه، وقعد في بعض الأيام في مجالس الشراب فلما سكر قتله مملوك يسمى جاولي من مماليك قراجا، فعند ذلك سار الأفرنج إلى حران وحصروها، فلما

سمع سقمان صاحب ماردين وغيرها وجكرمش اجتمعا وسارا إلى الخابور، وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد، فالتقوا على نهر البليخ فاقتتلوا قتالا شديدا، فأظهر أهل الاسلام الانهزام، فتبعهم الفرنج نحو فرسخ، فعاد عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاءوا، وامتلأت أيدي العسكر من الغنائم، لان سواد الافرنج كان قريبا، وكان معهم بيمند صاحب أنطاكية، وطنكري صاحب الساحل قد انفردوا وراء جبل ليأتوا المسلمين من وراء ظهورهم، فلما خرجا رأيا الافرنج منهزمين فانهزموا معهم، فتبعهم المسلمون وقتلوا من أصحابهم كثيراً، وأفلتا في ستة من الفرسان، وكان القمص بردويل صاحب الرها معهم فأسر وجاءوا به إلى الموصل، ففدى نفسه بخمسة وثلاثين ألف دينار ومائة وستين اسيراً، وكانت عدة القتلى من الافرنج والاسرى اثني عشر ألف رجل، ثم رحل جكرمش إلى حران فتسلمها وعدة حصون.

وفي تاريخ ابن كثير: وفيها قصد الأفرنج ـ لعنهم الله ـ الشام، فقاتلهم المسلمون فقتلوا خلقاً كثيراً.

وفي تاريخ النويري: وفيها سار صنجيل ـ وقد وصله مدد الفرنج من البحر ـ إلى طرابلس فحاصرها وتسلمها بالأمان، ثم سار إلى عكا ووصل إليه جمع من القدس فحصروها، وكان الوالي فيها من جهة خليفة مصر زهر الدنيا نبا، وجرى بينهم قتال عظيم، وآخر الامر ان الافرنج ملكوها بالسيف وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة، وهرب نبا إلى الشام ثم إلى مصر، ثم إن الافرنج قصدوا حران، فاتفق جكرمش وسقمان بن أرتق والتقيا مع الافرنج على نهر البليخ، فذكره إلى آخر ماذكره الآن.

وفي المرآة: وفيها نزل بغدوين وقيل بردويل صاحب القدس على عكا في البر والبحر في نيف وتسعين مركباً فحصروها من جميع الجهات،

وقاتل أهلها حتى ضعفوا عن القتال، وكان واليها زهر الدولة الجيوشي، فعجز عنهم وطلب الأمان له وللمسلمين الذين بها، فلم يعطوه وأخذوها بالسيف في رمضان وقيل في شعبان، وجاء زهر الدولة منهزماً الى دمشق، فأحسن إليه اتابك طغتكين، ثم مضى إلى مصر.

وفي المرآة أيضاً: وفيها في رجب وردت مراكب الافرنج اللاذقية مشحونة بالمقاتلة في البحار، فنزلوا على طرابلس مع صنجيل، وأقاموا أياما ورحلوا إلى جبيل، فأمنوا أهلها ودخلوها، ثم غدروا بأهلها فقتلوهم، وكان صنجيل صاحب أنطاكية[٣] قد بنى على طرابلس حصناً ليأخذ به طرابلس وشحنه بالرجال والأموال والسلاح، فخرج القاضي ابن عمار في عسكره في ذي الحجة وهجم الحصن على غره فقتل من فيه ونهبه وأخذ منه المال والسلاح، والمتاع وكل شيء فيه، وهدمه وعاد إلى طرابلس سالما غانما.

ذكر بقية الحوادث:

منها ان بلك بن بهرام بن أرتق، وهو ابن أخي ايلغازي شحنة بغداد استولى على مدينة عانة الحديثة، وكان له مدينة سروج، فأخذها الفرنج منه، فسار عنها إلى عانة وأخذها من بني يعيش بن عيسى، فقصد بنو يعيش صدقة بن مزيد فاسترجعها منه في المحرم، وسلمها إلى أصحابها...

ذكر من توفي فيها من الأعيان

شمس الملوك أبو نصر دقاق بن تاج الدولة تُتُش بن السلطان ألب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي صاحب دمشق، توفي في ثامن عشر شهر رمضان من هذه السنة ودفن بمسجد

قبة الطواسين بظاهر دمشق الذي على ظهر بردى، وكان قد حصل له مرض تطاول به وقيل إن أمه سمته في عنقود عنب فلما توفي قام بالملك ظهير الدين أبو منصور طغتكين، وكان أتابكه وتزوج بأمه في حياة أبيه، زوجه أياها، وهو عتيق تتش المذكور.

وقال النويري: لما توفي الملك دقاق صاحب دمشق خطب طغتكين الأتابك بدمشق لابن دُقاق وكان طفلا عمره سنة واحدة، ثم قطع خطبته وخطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل في ذي الحجة، ثم قطع خطبة بكتاش وأعاد خطبة الطفل، واستقر طغتكين في ملك دمشق إلى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ــ والله أعلم ـ وأحسن مع الناس السيرة، وبث فيهم العدل.

وفي المرآة: وفي هذه السنة عرض لدقاق صاحب دمشق مرض تطاول به، ووقع معه تخليط في الغذاء فأوجب انتقاله إلى علة الدق، فمازال به حتى أشفى، فلما وقع اليأس عن برؤه وانقطع الرجاء من عافيته تقدمت إليه والدته الخاتون صفوة الملوك بأن يوصي بما في نفسه ولايترك أمر الدولة وولديه سدى، فنص على أتابك طغتكين والحضانة لولده الصغير تتش بن دقاق حتى يكبر، ويتولى طغتكين أمور دمشق، وأعمال دقاق، وتوفي في اليوم الثالث والعشرين من رمضان ودفن على الشرف الشمالي بدمشق بالخانكاه التي يقال لها قبة الطوابيس، وبعد قليل توفي تتش بن دقاق الذي اوصى بالملك إليه، ودُقاق بضم الدال المهملة وبالقافين بينهما ألف.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والتسعين بعد الأربعمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستظهر بالله، ومات فيها السلطان بركياروق، والأمير اياز، والأمير سقمان، وصنجيل ملك الأفرنج، فلنذكرهم واحدا واحدا.

الأمير سقمان بن أرتق مات في هذه السنة، وسبب ذلك ان فخر الدولة ابن عمار صاحب طرابلس كان قد كاتب سقمان يستدعيه الى نصرته على الافرنج، وبذل له المعونة بالمال والرجال، فبينما هو يتجهز للمسير إذا أتاه كتاب الاتابك طغتكين صاحب دمشق يخبر انه مريض قد أشفى على الموت، وأنه يخاف وليس بدمشق من يحميها من الأفرنج، ويستدعيه ليوصي اليه بما يعتمده في حفظ البلاد، فلما سمع ذلك اسرع في السير عازما على أخذ دمشق، فلما وصل القريتين مات بالخوانيق، وحمله أصحابه وعادوا به إلى حصن كيفا.

وفي تاريخ المؤيد: وفي هذه السنة توفي سقمان بن [ارتق بن] أكسب - بالباء الموحدة - وقيل اكسك -بالكافين -وهو الأصح، وكانت وفاته في القريتين في صفر من هذه السنة، وقام ابنه ابراهيم موضعه، وحمل سقمان في تابوت إلى حصن كيفا فدفن به، ولما مات سقمان كان مالكا لحصن كيفا وماردين.

أما ملكه لحصن كيفا فقد ذكرناه من تسليم موسى التركماني صاحب الموصل لما استنجد به على جكرمش، وأما ملكه لماردين فهو أنه كان السلطان بركياروق وهبها هي وأعمالها لانسان مغن، ووقع حرب بين كربوغا صاحب الموصل وبين سقمان، وكان مع سقمان ابن أخيه ياقوتي وعماد الدين زنكي بن آق سنقر، وهو إذ ذاك صبي، فانهزم سقمان وأخذ

ابـن أخيه يـاقـوتي أسيراً، فحبسه كبروغـا في قلعة مـاردين، وبقي مـدة، فمضـت زوجه أرتـق الى كربـوغـا وسألتـه في اطـلاق ابن ابنهـا ياقـوتي، فأجابها كربوغا إلى ذلك، وأطلقه، فـأعجبت ياقوتي ماردين، وأرسل يقول لصـاحبها المغنـي: إن أذنت لي سكنـت في ربض قلعتـك وجبيت إليهـا الكسوبـات وحميتها مـن المفسديـن، ويحصل لـك بذلـك النفع فـأذن له المغني بـالمقام في الـربض، فـأقام يـاقوتي بما رديـن وجعل يغير مـن باب أخلاط إلى بغـداد، ويستصحب معه حفاظ قلعـة ماردين ويحسـن إليهم ويؤثـرهم على نفسـه، فاطمـأنوا إليـه وسار مـرة ومعه أكثـرهم فقبضهـم وقيدهم وأتـى الى باب قلعة ماردين ونادى من بها من أهليهـم وقال: إن فتحتم الباب وسلمتـم الي القلعة وإلا ضربت أعناقهم جميعهـم، فامتنعوا فـأحضر واحدا منهـم وضرب عنقـه ففتحوا البـاب لـه، وتسلـم ياقـوتي القلعة وأقـام بها، ثم جمع يـاقوتي جمعا وقصـد نصيبين ولحقه مـرض حتى عجز عن لبس السـلاح وركوب الخيل، وحمل الى فرسه وركبه، فـأصابه سهم فسقط ياقوتي منه ومات، ثـم ملك ماردين بعده اخوه علي وصار في طـاعـة جكـرمـش صـاحب الموصـل، واستخلـف على مـاردين بعـض أصحـابه، وكـان اسمـه عليا ايضـا، فـأرسـل علي يقول لسقمان: إن ابـن أخيك يـريد ان يسلـم ماردين الى جكرمـش فسار سقمان بنفسـه وتسلم مـاردين، فطـالبه ابـن اخوه علي بـاعـادتها اليه فلـم يفعل سقمان ذلـك، واعطاه جبل جـور عوضها، واستقرت ماردين وحصـن كيفا لسقمان حتى سـار إلى دمشق ومـات بالقـريتين، فصارت مـاردين لأخيـه ايلغازي بـن ارتـق، واستقرت لـولده ــ قال المؤيـد ـ إلى يـومنا هـذا، وهو سنـة خمس عشرة وسبعمائة.

صنجيل ملك الأفرنـج: هلك في هذه السنة، وكان صاحـب أنطاكية، وكـان قد صـالـح ابن عمار صـاحـب طرابلـس وهـادنه على ان يكـون لصنجيل ظاهر طرابلس، ولايقطع الميرة والمسافرين عليها.

وفي تاريخ ابن كثير: هلك صنجيل في سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وقال: وفي هذه السنة - أعني سنة تسع وتسعين - هلك صنجيل عليه اللعنة في مدينة جبلة، وذلك انه ملكها في هذه السنة —أعني سنة تسع وتسعين— ثم سار وأقام على طرابلس يحصرها،وبنى بالقرب منها حصنا وبنى تحته ربضاً، وهو المعروف بحصن صنجيل، فخرج الملك ابن عمار، صاحب طرابلس، فاحرق الربض، ووقف صنجيل على سقوفه المحترقة فانخسفت به، فمرض من ذلك عشرة ايام، وهلك وحمل الى القدس ودفن فيها، وقام بالحصار بعده ابنه، ودام الحرب بين أهل طرابلس والأفرنج خمس سنين، وظهر من صاحبها ابن عمار صبر جميل، وقلت الأقوات بها، وافتقرت الأغنياء.

وذكر بيبرس في تاريخه هلاكه في السنة الآتية وقال: لما احرق ابن عمار ربض الحصن الذي بناه صنجيل عامه ذلك، فمرض ومات. وامر ملك الروم أصحابه الذين باللاذقية أن يحملوا الميرة إلى الذين يحاصرون طرابلس، فخرج إليهم اسطول طرابلس فجرى بينهم قتال شديد، فأخذوا الميرة والمراكب فتقووا بها إلى ان ملك السلطان محمد البلاد.

ذكر بقية الحوادث:

منها انه كانت حروب كثيرة بين عساكر مصر والأفرنج فقتلوا منهم خلقا كثيرا.

وفي تاريخ بيبرس: وسبب ذلك ان الافضل وزير مصر، كان قد سير ولده شرف المعالي في السنة الماضية إلى الساحل، فقهر الافرنج وأخذ الرملة، ثم اختلف المصريون والعرب وادعى كل واحد منهما ان الفتح له، فأتاهم سرية من الافرنج فتقاعد كل فريق منهما عن الآخر، وكاد الافرنج ان يظهروا عليهم، فرحل شرف المعالي إلى والده بمصر، ثم سير

ولده سناء الملك حسين في جماعة من الأمراء، منهم: جمال الملك نائب عسقلان، وأرسلوا إلى طغتكين أتابك دمشق يستنجدونه، فأرسل إليهم اصبهبذ صبارو ومعه ألف وثلاثمائة فارس، وكان المصريون خمسة آلاف فارس، فقصدهم بردويل صاحب القدس وعكا ويافا في ألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجل، فوقع المصاف بينهم بعسقلان ويافا، فلم تظهر احدى الطائفتين على الأخرى، فقتل من المسلمين ألف ومائتان، ومن الفرنج مثلهم، وقتل جمال الملك صاحب عسقلان، فعند ذلك وضعوا الحرب وعادوا إلى عسقلان وعاد اصبهبذ صبارو إلى دمشق، وكان مع الأفرنج من المسلمين بكتاش بن تتش، وكان طغتكين قد عدل عنه بالملك إلى ولد أخيه دقاق وهو طفل، فدعاه ذلك إلى قصد الفرنج والركوب معهم.

ومنها: أنه كانت وقعة بين تنكري صاحب أنطاكية وبين الملك رضوان صاحب حلب، وسببها ان تنكري حاصر حصن أرتاح وبه نائبه، فأرسل إلى الملك رضوان يعلمه ويطلب النجدة، فسار رضوان في عسكر كثير من الرجالة والخيالة تقدير عشرة آلاف، فلما قرب من الافرنج ورأى تنكري كثرة المسلمين أرسل إلى رضوان يطلب الصلح، فأراد ان يجيب فمنعه أصبهبذ صبارو وكان قد قصده وسار معه بعد قتل اياز، فامتنع من الصلح، واصطفوا للحرب، فانهزمت الافرنج من غير قتال، واشتغل المسلمون بالنهب فعاد الافرنج فحملوا على المسلمين، فلم يثبوا وانهزموا، وقتل من المسلمين خلق كثير مقدار عشرة آلاف نفس، وفتح المسلمون الحصن وأخلوه وتوجهوا إلى حلب فملكه الأفرنج، وهرب أصبهبذ إلى طغتكين أتابك دمشق فصار في خدمته.

ومنها أنه كان استيلاء الأفرنج على عكا، وذلك ان بردويل ملك الافرنج سار بجموعه إلى ثغر عكا ومعه الجنويون من الفرنج في المراكب، فأحدقوا بها برا وبحرا وحاصروها وملكوها بالسيف، وكان

متوليها حينئذ زهـرة الدولة الجيوشي من جهة صـاحب مصر، فخرج منها هاربا إلى دمشق.

ومنهـا أنـه جـرت وقعة بين طغتكين الأتـابـك وبين الفـرنـج، فكسر طغتكين الأفرنج على بعلبك وفتح رفنيه وهدم أبرجتها.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والتسعين بعد الاربعمائة

ذكر ما جرى بين المسلمين والافرنج من الحروب والوقائع:

منها انه كـانت الحرب بين طغتكين متولي دمشق وبين الفـرنج ، فتارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، ففي آخـر الأمر بنى برديل حصنـا بينه وبين دمشق فخاف طغتكين من عـاقبة ذلك، فجمع عسكره وخرج ليقـاتلهم ويقدم إليهم، فاقتلـوا قتالا شديدا وفيهـم ملكهم القمص، فكانـت الهزيمة على الأفرنج، فتبعهم طغتكين بالقتـل والأسر إلى أن دخلوا الحصن الذي لهم، فحاصره طغتكين وأخذه بـالسيف، وقتل كل من كان فيـه، واستبقى من الفرسان مـائتي فارس في الأسر، وعاد طغتكين إلى دمشق مـؤيداً منصوراً، فزين البلد سبعة أيام.

ومنها ان الفـرنج ملكوا في هـذه السنة حصن أفـامية من بـلاد الشام، وسبب ذلـك أن خلف بن ملاعـب الكلابي، كان قـد تغلب على حمص، وكان الضرر به عظيما، ورجاله كانوا يقطعـون الطريق فكثر الحرامية عنده فأخذها منـه تتش بن ألب أرسلان وأبعده عنهـا، وتقلبت به الأحوال إلى أن دخل مصر فلم يلتفت إليه من بها، فإن المتولي بأفامية من جهة الملك

رضوان أرسل إلى صاحب مصر، وكان يميل إلى مذهبهم، فاستدعى من يسلم اليه الحصن منهم، وهو من أمنع الحصون، فطلب ابن ملاعب ان يكون هو المقيم به، وقال: إني راغب في قتال الأفرنج ومؤثر للجهاد، فسلموه إليه واخذوا رهائنه، فلما ملك خلع طاعتهم، وأرسلوا إليه يتهددونه بما فعل بولده الذي عندهم، فأجاب الجواب.. إني لا أنزل من مكاني وابعثوا إلي بعض أعضاء ولدي حتى آكله حتى أيسوا من رجوعه إلى الطاعة، وأقام بأفامية يقطع الطريق، ويخيف السبيل، واجتمع عنده كثير من المفسدين، فكثرت أمواله، ثم إن الفرنج ملكوا سرمين وهي من أعمال حلب، وأهلها يتغالون في التشيع، فلما ملكها الأفرنج تفرق أهلها وتوجه القاضي الى ابن ملاعب وأقام عنده، فأكرمه واحبه ووثق به، فأعمل الحيلة إليه، وكتب إلى أبي طاهر المعروف بالصائغ، وهو من أعيان الملك رضوان، ووجوه الباطنية ودعاتهم بالفتك بابن ملاعب وأن يسلم أفامية إلى الملك رضوان، فأتى أولاد ابن ملاعب إليه، وكانوا قد تسللوا من مصر وقالوا له: قد بلغنا عن القاضي كذا وكذا، والرأي أن تعاجله وتحتاط لنفسك فإن الأمر قد اشتهر، وأحضره ابن ملاعب فأتاه وفي يده المصحف لأنه رأى امارات الشر فقال: أيها الأمير قد علم كل أحد أني جئتك خائفا فأمنتني وأعنتني فصرت ذا مال وجاه، فإن كان أحد ممن يحسدني منزلتي عندك وماغمرتني به من نعمتك سعى بي إليك، فأسألك ان تأخذ جميع ما معي وأخرج كما جئت، فحلفه على الوفاء له والنصح وخلى سبيله، وأعاد القاضي مكاتبته الى ابي طاهر الصائغ واشار عليه ان يوقف ثلاثمائة رجل من أهل سرمين وينفذ معهم خيلا من خيول الأفرنج من رؤسائهم، ويأتون إلى ابن ملاعب ويظهرون أنهم غزاة، ويشكون من معاملة رضوان وأصحابه وأنهم فارقوه، فلقيتهم طائفة من الأفرنج فظفروا بهم، وكانوا قد اتفقوا على أنهم يحملون جميع ما معهم إليه، فإذا أذن لهم في المقام اتفقت آراءهم على أعمال الحيلة ففعل الصائغ ذلك، ووصل القوم إلى أفامية وقدموا إلى ابن

ملاعب مامعهم من الخيل فقبل ذلك منهم، وأمرهم بالمقام عنده وأنزلهم في ربض أفامية، فلما كان في بعض الليالي نام الحرس بالقلعة فقام القاضي ومن بالقلعة من أهل سرمين ودلوا الحبال وأصعدوا أولئك القادمين جميعهم وقصدوا ابن ملاعب وبني عمه ليقتلوهم، وأتى القاضي ومعه جماعة إلى ابن ملاعب فأحس به، فقال: من أنت؟ فقال: أنا ملك الموت جئت لأقبض روحك وقتل أصحابه، وهرب ابناه فلحقا بأبي الحسن بن منقذ صاحب شيزر.

ولما سمع الصائغ خبر أفامية سار إليها وهو لايشك أنهاله، فقال له القاضي: إن وافقتني وأقمت معي فعلى الرحب ونحن نحكمك وإلا فارجع من حيث جئت، فأيس منه، وكان أحد أولاد ابن ملاعب بدمشق عند طغتكين غضبان فهرب إلى الافرنج واستدعاهم إلى أفامية، وقال لهم: ليس فيها قوت غير شهر واحد، فأقاموا عليها يحاصرونها، فجاع أهلها فملكها الأفرنج وقتلوا القاضي المتغلب عليها والصائغ، وكان هذا هو الذي أظهر مذهب الباطنية بالشام...

فصل فيما وقع من حوادث في السنة الثانية بعد الخمسمائة

ذكر ما فعله الأفرنج لعنهم الله:

منها ان طنكريد فتح حصن بانياس وسلمه إلى المازوير.

ومنها ان الأفرنج اخذوا طرابلس في هذه السنة، وقيل في السنة الآتية، اجتمع عليها ملكهم بيمند بن صنجبيل في ستين مركبا في البحر مشحونة بالمقاتلة، وطنكريد صاحب أنطاكية، وبغدوين صاحب القدس وشرعوا في قتالها وضايقوها من أول شعبان إلى حادي عشر ذي الحجة، وايقنوا بالهلاك مع تأخر الاسطول عنهم من مصر، وكان كلما سار

الاسطول نحوهم دفعته الريح إلى جهة مصر، فلما كان في يوم الاثنين هجمها الا فرنج ونهبوها، واسروا رجالها وسبوا نسائها، وساروا الى جبلة وبها فخر الملك ابن عمار، فتسلموها بالامان في الثاني والعشرين من ذي الحجة، وخرج منها ابن عمار سالما، ووصل حينئذ الاسطول المصري، وجاء ابن عمار الى شيزر، فأكرمه صاحبها علي بن منقذ واحترمه وعرض عليه المقام عنده فأبى وتوجه الى دمشق فأكرمه طغتكين صاحب دمشق وانزله في داره، وأقطعه الزبداني وأعماله، ووقعت مهادنة بين بغدوين صاحب القدس وبين طغتكين صاحب دمشق على ان يكون السواد وجبل عوف مثالثة: الثلث للفرنج، والثلثين للمسلمين.

ومنها أنه كانت الحرب بين طغتكين صاحب دمشق والأفرنج.

ومنها أن طغتكين سار إلى طبرية وقد وصل إليها ابن أخت بردويل صاحب القدس فتحاربا واقتتلا، وكان طغتكين في ألفي فارس وكثير من الرجالة، وكان الفرنجي في أربعمائة فارس وألفي راجل، فلما اشتد القتال انهزم المسلمون ونادى طغتكين: ياللمسلمين فشجعهم فعادوا للحرب وكسروا الأفرنج، وأسر ابن أخت الملك وحمل إلى دمشق فعرض عليه طغتكين الا سلام فامتنع وبذل في نفسه مالا ثلاثين ألف دينار، واطلاق خمسمائة أسير، فلم يقنع طغتكين منه بغير الاسلام، فلما لم يسلم قتله بيده، وأرسل إلى الخليفة والسلطان الأسرى إلى بغداد ثم وقع الصلح بين بغدوين ملك القدس وبين طغتكين على أن تضع الحرب (أوزارها) أربع سنين، وكان ذلك لطف الله بالمسلمين.

ومنها أنه في شعبان انهزم المسلمون من الأفرنج، وسبب ذلك أن حصن عرقة من أعمال طرابلس الشام كان بيد غلا م القاضي فخر الملك ابن عمار، فعصى على مولاه، فضاق به القوت وانقطعت عنه الميرة لطول مكث الأفرنج في نواحيها، فأرسل إلى طغتكين ليرسل إليه من يتسلم

الحصن: فقد عجزت عن حفظه لئلا يأخذه الأفرنج والمسلمون أحق به، فسار إليها فاجتمع الفرنج الذين كانوا يحاصرون طرابلس وغيرها وكسروا طغتكين، وانهزم المسلمون إلى حمص، فغنم الأفرنج أثقالهم ودوابهم، ثم حصروا عرقة، فطلب من بها الأمان فأمنهم الأفرنج، وكان في الأسر مقدم يسمى اسرائيل، فقالوا له: لانخليك تروح حتى يسير إلينا طغتكين فلانا الأفرنجي بذلك، ففدى به طغتكين واطلقا جميعا.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها في عيد الفصح للنصارى نزل الأمراء بنو منقذ أصحاب شيزر للتفرج على عيد النصارى، فثار جماعة من الباطنية في حصن شيزر فملكوا قلعتها، وبادر أهل المدينة إلى الباشورة وأصعدهم النساء بالحبال من الطاقات وأدركهم الأمراء بنو منقذ، ووقع بينهم القتال فانخذلت الباطنية وأخذهم السيف من كل جانب، فلم يسلم منهم أحد.

ومنها في شوال ملك الأمير سقمان القطبي صاحب خلاط مدينة ميافارقين بالأمان بعد أن حصرها وضيق على أهلها حتى عدمت الأقوات فسلموها بالأمان..

ومنها أن الأمير مودود استولى على الموصل هو والعسكر الذين أرسلهم السلطان محمد، وأخذوها من أصحاب جاولي سقاوة، وقد ذكرنا استيلاء جاولي عليها في سنة خمسمائة وماجرى بينه وبين جكرمش والملك قليج أرسلان، وكان سبب غضب السلطان على جاولي أنه كان استولى على البلاد ولم يحمل إليه منها شيئاً، ولما وصل السلطان إلى بغداد لقصد سيف الدولة صدقة أرسل إلى جاولي يستدعيه إليه بالعساكر، وتكررت الرسل إليه فلم يحضر وغالط في الانحدار إليه، فلما فرغ السلطان من أمر صدقة وقتله كما تقدم أمر بتجهيز العساكر لقصد

الموصل فتقدم الى الامراء وهم: بنو برسق، وسقمان القطبي، ومودود، وأقسنقر البرسقي، ونصر بن مهلهل بن أبي الشوك الكردي، وأبي الهيجاء صاحب إربل، بالمسير إلى الموصل وأخذها منه فتوجهوا فوجدوا جاولي عاصيا قد شيد سور الموصل وحصنها، وأعد الميرة والأقوات، فنزلوا عليها في شهر رمضان من هذه السنة وحاصروها وضايقوها، فلما طال الأمر على الناس اتفق نفر من الجصاصين ومقدمهم يعرف بسعد، فأتوا وقت صلاة الجمعة وصعدوا برجاً وقتلوا الجند الذين به، وأغلقوا بابه ونادوا بشعار السلطان محمد، وطلع مائتا فارس من العسكر فرموهم بالنشاب ونادوا بشعار السلطان، فعند ذلك زحف العسكر من كل مكان على البلد فملكوه ودخله الأمير مودود فنادى بالسكون ورفع النهب وأن يعود الناس إلى دورهم، وأقامت زوجة جاولي بالقلعة ثمانية أيام فراسلت الأمير مودود في أن يفرج لها عن طريقها ويتسلم القلعة فأجاب إلى ذلك، فحلف لها وخرجت إلى أخيها برسق بن برسق ومعها أموالها وما استولت عليه، وولي مودود الموصل وما انضاف إليها.

وأما جاولي فإنه لما وصل عسكر السلطان إلى الموصل خرج عنها وأخذ القمص صاحب الرها الذي كان أسره سقمان وسار به إلى نصيبين وهي للأمير إيلغازي بن أرتق، وسأله الاجتماع به واستدعاه إلى معاضدته فلم يجبه ايلغازي الى ذلك، فرحل عن نصيبين وسار إلى ماردين وقصد دار إيلغازي، ولم يشعر الا وجاولي معه في القلعة وحده، وقصد ان يتألفه ويستميله، فلما رآه إيلغازي قام وخدمه، ولما رأى جاولي محسنا به الظن نزل معه وعسكر بظاهر البلد، فسار نحو الرحبة وإيلغازي يظهر لجاولي المساعدة ويبطن الخلاف وينتظر الفرصة لينصرف عنه، فلما وصلا إلى عربان من الخابور هرب إيلغازي، فسار جاولي إلى الرحبة، فلما وصل ماكسين أطلق القمص الفرنجي واسمه بردويل، وكان صاحب الرها وسروج وكان مقامه في الأسر خمس سنين وقرر عليه أن يفدي نفسه بمال وأن يطلق المسلمين الذين أسرهم وأن

ينصره متى طلبه بنفسه وعسكره، فلما اتفق الحال سير القمص إلى قلعة جعبر فسلمه إلى صاحبها سالم بن مالك، وأقام جوسلين في قلعة جعبر رهينة عن القمص، فلما أطلقه سار إلى أنطاكية فأعطاه طنكريد صاحب أنطاكية ثلاثين ألف دينار وسلاحا وخيلا وغير ذلك، وأطلق القمص من أسارى المسلمين مائة وستين نفرا كلهم من سواد حلب فكساهم وسيرهم، وكان صاحب أنطاكية قد تسلم الرها من أصحاب القمص حين أسر، فلما وصل طلب ردها من صاحب أنطاكية، فلم يفعل، فخرج من عنده غضبانا الى تل باشر، ثم إن جاولي منّ على جوسلين باطلاقه من الأسر لأنه فدى نفسه بمال، فاجتمعا على تل باشر واتفقا على محاربة صاحب أنطاكية، فسار إليهما بعساكره فاقتتلوا وعاد طنكريد إلى بلاده من غير فصل حال، فتوسط البترك بينهما وقال له جماعة من البطاركة والقسيسين: إن بيمند لما أراد ركوب البحر قال ان تعاد على القمص الرها إذا خلص من الأسر، فأعادها عليه في تاسع صفر، وعبر الفرات ليسلم إلى أصحاب جاولي المال، وكان بسروج ثلاثمائة مسلم ضعفاء، ولما أطلق جاولي القمص سار إلى الرحبة، فأتاه أبو النجم بدران، وأبو كامل منصور ابنا سيف الدولة صدقة، وكانا بعد قتل أبيهما عند سالم بن مالك بقلعة جعبر فتعاهدوا على المساعدة والمعاضدة، ووعدهما أن يسير معهما الى الحلة، وعزموا أن يقدموا عليهم بكتاش بن تكش بن ألب أرسلان، فعندما عزموا على هذا الامر وصل إليهم اصبهبذ صبارو الذي كان قصد السلطان محمدا، واقطعه الرحبة فاجتمع بجاولي واشار عليه ان يقصد الشام فإن بلاده خالية من الجند، والافرنج قد استولوا على أكثرها، ومتى قصد العراق والسلطان بها لم يأمن من شر يصل اليه، فقبل قوله، وأصعد عن الرحبة، فوصل اليه رسل سالم بن مالك صاحب جعبر يستغيث به من بني نمير، وكانت الرقة بيد ولده علي بن سالم فوثبوا عليه فقتلوه، فبلغ ذلك الملك رضوان صاحب حلب، فسار الى صفين، فصادف في صفين الذين معهم مال القمص صاحب الرها قد

سيره الى جاولي فـاخذه واسر الافـرنج، واتى الـرقة فصـالحه بنو نمير على مال فرحل عنهـم الى حلب، فاستنجد عند ذلك سالم بـن مالك جاولي، فقصـد الرقـة وحصرهـا سبعين يومـا، فضمن لـه بنـو نمير مالاً وخيـلا، ورحل عنهـم، ثم وصل إليـه الامير اتابـك، حسين بن قتلغ تكين يـأمره بتسليـم البـلاد، وطيب قلبـه عـن السلطـان، وضمـن له كـل جميـل إذا سـلم البـلاد، فقال جـاولي: سر إلى الموصل ورحـل العسكر عنهـا، وأنا أرسـل معك مـن يسلم ولـدي رهينة وينفـذ السلطـان من يتـولى امرهـا، ففعل حسين ذلـك، وسار ومعه صـاحب جاولي، فلما وصـل الى العسكر قبض الامير مودود على صـاحب جاولي، وأقام على الموصـل حتى فتحها كما ذكرنـا، وعاد حسين إلى السلطـان فأحسـن القول عـن جاولي، فسـار جاولي إلى مدينة بالس فملكها، وهـي من أعمال حلب، فعند ذلك كتب الملك رضوان إلى طنكريـد صاحب أنطاكية يعلمه انه قـاصد حلب وأنه إن ملكها لايبقى للافرنج معه مقـام بـالشام، وطلب منه النصرة والاتفاق على منعه، فأجابـه ولحق به وهو بمنبج، فوصل الخبر وهـو في هذه الحالة أن الموصـل أخذت، واستـولى عليهـا عسكر السلطـان، وملكـوا خزائنـه وأموالـه فاشتـد ذلك عليـه، ففارقه أكثـر عسكره، ومنهـم أتابـك زنكي وبكتـاش، وبقي مـع جـاولي نفـر يسير، فلما تقاربـوا وتصـافوا وكـان صاحـب أنطاكيـة في عسكر كثيـف من المسلمين والأفـرنج، فلما وقعـت العين على العين لم يثبت لهم جـاولي، فانهزم عسكـره منهم، وتـوجه نحـو بـلاده، وقتل مـن المسلمين خلق كثير، ونهبـت الأفـرنج دوابهم وأمـوالهم، وأما جـاولي فقصد الرحبة، فلما رأى الحال كـذلك علم انه لايقـدر يقيم في الجزيرة ولابـالشام، ولايقدر على شيء يحفظ بـه نفسه ويرجـع إليه غير قصد بـاب السلطان محمـد شاه، وكان واثقـاً من الأمير حسين بـن قتلغ تكين، فرحـل وسار إلى عسكـر السلطان، وكـان بالقـرب من أصفهـان، فوصل إليه في سبعة عشر يومـا، لانه جد السير، فلما وصل العسكر قصد الأمير حسينـاً، فحمله إلى السلطـان وكفنه في يـده، فـآمنه فـأتاه الأمـراء

يهنونه، وطلب منه السلطان الملك بكتاش بن تكش فسلمه إليه واعتقله بأصفهان...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة بعد الخمسمائة

ذكر ماجرى من الافرنج لعنهم الله في هذه السنة:

من ذلك ان الافرنج اخذوا مدينة طرابلس وقتلوا من فيها من الرجال، وسبوا الحريم والأطفال وغنموا الأمتعة والأموال، ثم أخذوا مدينة جبيل.

وفي تاريخ بيبرس: وفي سنة ثلاث وخمسمائة ملكت الا فرنج طرابلس وبيروت من الشام، وسبب ذلك انهم حاصروها خمس سنين، فلما طال المقام عليها وصاحبها فخر الملك ابن عمار سار إلى السلطان محمد شاه يستنجده، فلما خرج منها سلمها إلى ابن عمه أبي المناقب، فكاتب الأفضل وزير مصر وسلمها إليه كما ذكرنا، وكانت النجدة والميرة تتواصل من مصر والحكم لصاحب مصر وهو نائبه، فلما كان في أول شهر رمضان وصل اسطول كبير، واجتمع عليها ملوك الفرنج، وجاء بيمند بن صنجيل في ستين مركبا وطنكريد صاحب انطاكية وبغدوين صاحب القدس وضايقوها وزحفوا عليها لمساعدة السرداني ابن أخت صنجيل، فلما شاهد ذلك الجند وأهل البلد سقط في أيديهم وذلت نفوسهم لتأخر الاسطول المصري، لتغير الريح اليهم وتعذر الوسول اليهم (ليقضي الله أمراً كان مفعولا} [الانفال ٤٢] فشد الافرنج عليهم القتال والزحف فهجموا البلد وملكوها قهرا في يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، ونهبوا مافيها واسروا وقتلوا وسبوا النساء والاطفال، ونهبوا

الامتعة والأموال، وسلم الوالي الذي كان فيها وسلم الأموال، وسلم قوم من أهلها وجماعة من جندها كانوا قد التمسوا الأمان، ثم رحلوا الى دمشق، واخذت الافرنج دفائن اهل طرابلس وذخائرهم، وعاقبوا أهلها فلا حول ولاقوة الا بالله العلي العظيم.

ولما فرغ الافرنج من طرابلس سار طنكريد صاحب انطاكية الى بلنياس وحصرها فافتتحها، ثم نزلوا على جبيل وبها فخر الملك ابن عمار صاحب طرابلس، وكان القوت بها قليلا، فحاصروها وطلب أهلها الأمان فخرجوا منها وملكها الأفرنج في الثاني والعشرين من ذي الحجة، ثم سار فخر الملك الى دمشق وانزله طغتكين عنده فأكرمه واقطعه الزبداني من عمل دمشق، وكان ذلك في المحرم من سنة اربع وخمسمائة.

وفي هذه السنة ــ أعني سنة ثلاث وخمسمائة ـ ملكت الافرنج بيروت، ومقدمهم بغدوين صاحب القدس، ثم ساروا الى صيدا فصالحوهم على ستة آلاف دينار فرحلوا عنها، وسار بغدوين الى القدس.

وفي هذه السنة ايضا سار طنكريد صاحب أنطاكية الى طرطوس واخذها، ثم بعد ذلك قرر على شيزر عشرة آلاف دينار، ثم تسلم حصن الاكراد وعاد الى انطاكية.

وفي تاريخ ابن العميد: وكانت مدة حصار الافرنج سبع سنين، واستولت عليها الافرنج بعد ان فني من فيها من المسلمين من شدة المضايقة والجوع، وكانت مدينة عظيمة مملوءة من المسلمين والعلماء، وملكت ايضا في هذه السنة حصن عكار، وحصن المنيطرة، وقرروا على حصن مصيات، وحصن الأكراد قطيعة معينة في كل سنة، وفيها ايضا ملكت الافرنج بيروت بعد حصار شديد.

وفي المرآه: وفي هـذه السنة نهضـت الأفرنـج على رفنية، وعـرف أتابـك طغتكين فسار بـالعسكر وخيم بازائهـم بحمص، فلم يقدروا على منـازلة رفنية، وترددت بينهـم مراسلات أفضت إلى تقريـر الموادعة على أن يكون لـلافرنـج ثلث مغـل البقاع، ويسلـم إليهم المنيطـرة وحصن عكـار، وأن لايتعرضـوا لحصن مصيات وحصـن الأكراد وأن يحمل إليهـم عنهما مالا، وكذا عن حصن الطوبان، فأقامـوا مدة يسيرة، ثم عاد الافرنج الى الفساد في البـلاد، ونزل بغـدويـن صاحـب القـدس وابن صنجيـل على بيروت، وسـار إليهم جـوسلين صـاحـب تل بـاشر لمعـاونتهـم، وجاء الاسطـول المصري وفيه الرجـال والميرة فدخلوا بيروت فقويت نفـوس أهلها، وبعث بغدوين إلى الجنـوية فجاءوا في أربعين مركباً فـزحفوا برا وبحرا فـدخلوها قهراً بـالسيف فقتلوا ونهبـوا وسبوا وفعلـوا كما فعلوا بطرابلـس واستصفوا الأموال والذخائر، ثم رحل بغدوين فنزل على صيدا وراسل أهلها بتسليم البلد فاستمهلوا مـدة عينوها فأجابهم واخذ منهـم مالا، وعاد الى القدس بسبب الحج.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير قراجـا صاحب حمص توفي في هـذه السنة فملكها بعـده رجل يقـال له خيرخـان... وفي تاريـخ ابن العميـد: لما مـات قراجـا صاحـب حمص ملكها بعده صمصام الدين خيرخان ولد قراجا، وا لله أعلم.